البحوث الأثرية في حوض الروج، إدلب

تاكويا إيواساكي - اكيرا تسونيكي

تعريب: إحسان شيط

مقدمة

أجرت بعثة جامعة تسوكوبا أبحاثاً أثرية في محافظة إدلب، شمال غربي سورية، في الفترة مابين ١٩٩٠ و١٩٩٢. وكان الغرض من وراء هذه الأبحاث هو الحصول على معطيات مادية فعلية بغاية دراسة الانتقال التاريخي بدءاً بالقرية الزراعية وانتهاءاً بالمدينة، لذا ستنصب اهتماماتنا الخاصة على مواقع العصر الحجري الحديث وبدايات عصر البرونز.

خطط هذا المشروع بالارتباط الوثيق مع التنقيبات التي قام بها متحف الشرق القديم في طوكيو منذ العام ١٩٨٠ في تل المصطومه. لقد استكملنا عملنا الميداني الواسع النطاق، ونرغب أن نعرب عن امتناننا الحميم لكافة المؤسسات والأفراد الذين انخرطوا في بحثنا، وبخاصة لفخامة السيدة نجاح العطار، والدكتور سلطان محيسن والدكتور عدنان البني، الدكتور علي أبو عساف، السيد عدنان الجندي، السيد نسيب صليبي، السيد عبدو أصفري، السيد محمد لحلوح، السيد حميدو حماده، السيد جمال حيدر والعاملين الآخرين في المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية.

منطقة الدراسة هي حوض الروج، الواقعة على بعد ١٠ كم غربي إدلب، وحوالي ٧٠ كم جنوب غربي حلب (الشكل١). يمتاز هذا الحوض بموقع نموذجي محاط بالجبال الكلسية (شكل٢). يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب حوالي ٣٠كم و٨كم كحد أقصى من الشرق إلى الغرب. وقد فصلت الحمم البازلتية الجزء الجنوبي من هذا الحوض عن سهل الغاب الممتد على ضفتي العاصي. أما توضعات طمي المنعطفات النهرية المروحية الشكل التي جلبتها مسيلات أودية الجبال المحيطة، فقد استقرت على حافة الحوض. في حين انتشرت توضعات السهل الفيضي داخل توضعات المنعطفات النهرية المروحية الشكل، وكانت هنالك بحيرة قديمة، ندعوها بحيرة العمق، قائمة في مركز الحوض، وهذه البحيرة استعيدت للاستثمار الزراعي، لحقول القطن بوجه خاص، وقد اكتشف ٣٣ تلاً داخل الحوض، ومن الجدير ذكره أنه ما من مستوطنة قديمة تأسست في السهل الفيضي، وأن كل التلول تقريباً اتخذت مواقعها عند أطراف توضعات المنعطفات المروحية، لأن الكثير من الينابيع تظهر في هذه النقاط (شكل ٣)

منهج البحث

يتألف بحثنا من ثلاث عمليات أساسية؛ أي سبر الأعماق والمسوحات العامة والدراسات البيئية الطبيعية. وقد أجريت عمليات السبر في أربعة تلول، تل عري ١ و٢، وتل عبد العزيز وتل الكرخ٢، والتي أمدتنا بتسلسل زمني حضاري مفصل للحوض من العصر الحجري الحديث إلى بدايات عصر البرونز.

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

لقد استخدم هذا التسلسل الزمني لتحديد العصور التي تعود إليها المواد المجمعة أثناء عمليات المسح العامة، التي أجريت للتوصل إلى فهم انتشار المواقع الأثرية لكل عصر. وقد استخدمت المسوحات السطحية التصنيفية لبعض التلول الهامة. والشكل ٤ يبين حالة مجمع في تل حري. رتبت شبكات متسامتة ٢×٥م على مجمع التل طولانياً وعرضانياً. وقمنا بجمع كل المواد السطحية في كل شبكة، وقسمت المواد وأحصيت حسب العصور التي تعود إليها. زودنا هذا العمل بمعلومات عن امتداد المستوطنة في كل عصر.

قام الاختصاصيون بالدراسات الجيومورفولوجية والجيولوجية والنباتية والبلينولوجية (فرع من علم النبات يبحث في الأبواغ واللقح). وقد أمدتنا هذه الدراسات بالكثير من المعلومات عن البيئة القديمة للحوض، وحجم التغير الذي طرأ على بحيرة الروج القديمة، مثلاً.

التعاقب الزمني وعدد المواقع

استطعنا، استناداً على نتائج عمليات السبر الأربعة، أن نقسم التعاقب الحضاري منذ العصر الحجري الحديث وحتى بدايات عصر البرونز في حوض الروج إلى الفترات الست التالية. وسمينا كل فترة الروج ١ حتى الروج ٦.

لقد شهدت الروج ١ تأسيس المستوطنات الأولى التلية النمط في الحوض. وقد تم تحديد هذه الفترة بالاعتماد على الطبقات الأقدم لتل الكرخ٢، وهي تعود إلى مراحل العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار النهائية والأخيرة في المشرق.

وتعود الروج ٢ إلى النيوليتي الفخاري والتي أعقبت الروج I مباشرة. وقد تمكنا بالاعتماد على عمليات السبر في تل الكرخ٢ وتل عري ١ و٢ من وضع اليد على عملية نشوء مرحلة فخارية مبكرة مفصلة وقسمناها إلى أربعة فترات جزئية. وقد بدأت هذه السلسلة الفخارية المتعاقبة بالفخاريات غير المصقولة ذات العجينة الرملية والسطح البني الشديد النعومة والخالي من الزخارف (الشكل ٥). أما الشكل فقد اقتصر على الطاسات المدورة القعر. سميناها آنية الكرخ، والتي يحتمل أنها سبقت آنية العمق نموذج A المصقولة، الداكنة السطح.

وأنتجت المراحل الجزئية الثلاث التالية آنية العمق B-A، إلا أن كل مرحلة جزئية لها أسلوبها الزخرفي المميز. فالآنية المصقولة القاتمة السطح للفترة الجزئية الثانية، مثلاً، عليها طبعة مسمار (الشكل ٦)، والثالثة عليها طبعة المهزة (الشكل ٧)، وآنية الفترة الأخيرة فعليها النقش المصقول (الشكل ٨).

وقد تميزت الروج ٣ بالتأثير الحلفي في صناعة الفخاريات المحلية. وقد تم التعرف عليها خلال عمليات السبر في تل عري ١ وتل عبد العزيز. وبالرغم من اكتشاف فخاريات حلفية حقيقية مطلية (الشكل ٩)، فإن فخاريات هذا العصر الأكثر روعة هي الآنية الصقيله المطلية بالأحمر ذات العجينة الصفراء الشاحبة إلى الصفراء البرتقالية (الشكل ١٠).

وخلال فترة الروج ٤، ألغت الفخاريات العبيدية النسب التأثير الحلفي إلغاءً تاماً. وقد أنتجت طبقات تل عبد العزيز العليا مقداراً كبيراً من الفخاريات المطلية العبيدية النسب.

كانت مرحلة الروج S هي الفترة الواقعة بين نهاية العهد العبيدي وبدايات عصر البرونز. لسوء الحظ، المعلومات المتوفرة حتى الآن قليلة، لأننا لم نصادف الطبقات الحضارية لهذا العصر في عمليات السبر. وقد أشارت بعض كسر الفخار من المجموعات السطحية إلى وجود هذا العصر في الحوض، وتعود فترة الروج ٦ إلى بدايات عصر البرونز في شمال غربي سورية. أنتجت الطبقات العليا المسبورة في تل عري I أنماطاً متعددة من الأواني الرقيقة المدورة الضاربة إلى الصفرة، وقد أعطت المثل الرائع على التطور المحلي من البرونز القديم I إلى 4 BIVEBI، أما عمليات السبر الكرونولوجي (التسلسلي الزمني) للعصور اللاحقة فلم نقم بها، لأن اهتمامنا الخاص كان منصباً على الفترة من العصر الحجري الحديث إلى بدايات عصر البرونز.

وكما أسلفنا، تم اكتشاف ثلاثة وثلاثين تلاً ضمن الحوض. والمواد العائدة إلى الفترة الواقعة بين الروج I والروج٦ جمعت من تسعة عشر تلاً، والتلال الأربعة عشر الأخرى

أنتجت فقط مواداً أحدث. إن موقع كل تل واستيطانه ملخصان في الشكل ١١ و١٢. ولابد لنا من ملاحظة أن معظم التلول قد استوطنت خلال عصرين أو أكثر. والآن ندرس نمط مستوطنة حوض الروج.

نمط المستوطنة

تم تعيين أولى أنماط المستوطنات في حوض الروج في تل الغفار I في الشمـ ـال الشرقي وتل الكرخ٢ في الجزء الجنوبي للحوض. وهاتان المستوطنتان العائدتان لمرحلة الروج I هما الوحيدتان اللتان اكتشفتا من هذه المرحلة، وذلك جزئياً بسبب صعوبة تمييز مواقع النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB المتأخرة عن مواقع العصر الحجري الجديد الفخارية المبكرة بالاستناد إلى المواد السطحية. وللسبب نفسه كان من العسير جداً أن نفترض حجم مستوطنات النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB. على أية حال، بدا أن مستوطنات مرحلة الروج I شغلت أكثر من بضعة هكتارات بقليل.

أثبتت حفرة سبرٍ صغيرة في تل الكرخ٢ أن قاطنيها قد جلبوا كمية هائلة من حصى الصوان من مقلع مجاور وأعدوا أدوات حجرية عديدة ضمن مستوطنتهم. هنالك نبع صغير، عين الكرخ، عند أسفل تل الكرخ٢، والتي لابد أنها مدت سكانها القدماء بأسباب الحياة. وعلاوة على ذلك، اكتشفت أيضاً مبانٍ مستطيلة الشكل شيدت بالطين المدعوك (Pise) في حفرة السبر.

اكتشفت ١٤ تلاً من تلال فترة الروج٢ في المنطقة. وهي تشير إلى أن تطور الحوض كان يسير بسرعة خلال هذا العصر، وقد أنتج مجمعان كبيران مهمان في عري في الشمال والكرخ في جنوب الحوض عدداً هائلاً من المواد المتزامنة مع فترة الروج٢.

يمثل الشكل ١٣ خريطة لمجمع التل في الكرخ. والمثير للدهشة، أننا لم نستطع جمع شيء سوى مواد العصر الحجري الحديث (أي عصري الروج١ و٢) من فوق تل عين الكرخ وتل الكرخ٢، باستثناء الجزء ا الجنوبي من التل الأول والذي كان مغطى بشكل كثيف بكسر الفخار البيزنطي. جمعت بعض المواد أيضاً من أسفل تل الكرخ I، والتي كانت مغطاة بتوضعات كثيفة لحضارات لاحقة. وتشير المجموعة السطحية إلى أن مجمع التل، الذي شكل مستوطنة واحدة ضخمة خلال فترة الروج٢، بلغت مساحته أكثر من عشرة هكتارات.

ويشير مجمع التل في عري إلى نفس الوضع. فمجمع التل هذا تألف أيضاً من ثلاث تلول اصطناعية (شكل ٤)، التل الجنوبي الأعلى سميناه تل عري ١، والتلان المنخفضان اللذان سميناهما تل عري٢ وتل عري٣، كانا متصلين بالجزء الشمالي لتل عري ١. وأمكن جمع مواد فترة الروج٢ من كل هذه التلول. من ناحية أخرى، تل عري ١ فقط أنتج مواد أحدث. وقد أظهرت عمليات السبر في تل الكرخ٢ وتل عري ١ و٢ سلسلة من المباني المعقدة، مما يوحي بوجود مستوطنة كثيفة السكان هناك خلال مرحلة الروج٢. ووجود طبعات الأختام الحجرية والخرز التركوازي (الشكل ١٤) بين المواد المنقبة، يشير إلى أن هذه المستوطنات كانت مركزاً للتجارة ضمن الحوض. أما المواقع الأخرى المعاصرة، كتل ميليس وتل قليون وتل الغفار I وتل بتراد وتل فيلون٢ وتل عبد العزيز في الشمال وتل تليرا وتل مروان٢ في جنوب الحوض، فقد كانت كلها صغيرة نسبياً. وهكذا، افترض أن هنالك منظومة مستوطنات تتألف من واحدة ضخمة حولها عدة مستوطنات صغيرة في الحوض خلال ذلك العصر (الشكل ١٥).

اكتشفت مواقع أقل بالنسبة لفترتي الروج ٣ و٤ اللاحقتين، أربعة أو خمسة مواقع فقط تعود لهاتين الفترتين. وعلى الرغم من أن كل هذه المستوطنات قد تأسست في مرحلة مستوطنات الروج٢، فإن كسر الفخار جمعت من بقاع أكثر محدودية من كسر الفخار الملتقطة من العصور السابقة. أما الموقع النموذجي فهو تل عبد العزيز، الذي غطى فقط ٦,٠ هكتار، ويمكن الافتراض بأن هنالك أفول في عدد السكان تصادف مع انحسار في حجم المستوطنة. هذه النزعة كانت أكثر جلاء بالنسبة لمرحلة الروج ٥.

وعودة السكن واضحة بالنسبة لفترة الروج٦. فقد أعيد استيطان أو تأسيس عشر مستوطنات من جديد في الحوض خلال تلك الفترة. ومعظم هذه التلول كانت بأقطار تتراوح بين ٢٠٠ - ٣٠٠م، في حين أن مستوطنتي تل الدحان

المسورة في الظاهر في الشمال وتل الكرخ I في الجنوب، فقد كانتا أكبر إلى حدما. وقد أظهرت عملية سبر في تل عري جزءاً من سور المدينة في هذا العصر. بكل الأحوال كانت معظم التلول ذات حجم متوسط والفروق في حجم المستوطنة خلال هذا العصر لاتنطبق والفروق التي لعصر الروج٢.

مناقشة

لقد أشرنا بصورة موجزة إلى تغير أنماط مستوطنات حوض الروج بالاستناد إلى عمليات المسح الأثري التي قمنا بها. وفيما يلي مناقشة لبعض وجهات النظر الضرورية للوصول إلى فهم أفضل للتاريخ المبكر في الفترة منذ العصر الحجري الحديث وإلى أوائل عصر البرونز في شمال غربي سورية.

من وجهة النظر الجغرافية، اكتشفت مواقع العصر الحجري الحديث في شمال غربي سورية في ثلاثة مناطق مختلفة (الشكل ١٦). المنطقة الأولى هي ساحل المتوسط، رأس شمرا (كونتينسون ١٩٦٢, ١٩٦٣, ١٩٦٤, ١٩٧٧، و١٩٧٧-١٩٧٨) وتل سوكاس (ريس وترين Riis and Thrane ١٩٧٤) وقلعة الروس (اهرتش ١٩٣٩) وطبعة الحمام Tabát el Hammam (بردوود ١٩٤٠) كلها موجودة في هذه المنطقة. وكل هذه المواقع تعود إلى العصر الحجري الحديث الفخاري، ماعدا رأس شمرة التي وجدت فيها طبقة النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB الحديثة تحت طبقات النيوليتي الفخاري.

أما المنطقة الثانية فهي أحواض السهول القائمة حول أو بين السلاسل الجبلية، جبال اللاذقية، جبل الزاوية وجبال أمانوس، والتي تمتد شمالاً وجنوباً. ومعظم المواقع النيوليتية في هذه المنطقة قامت في السهلين، سهل العمق وسهل الغاب، على امتداد نهر العاصي. في سهل العمق، تل الجديدة، تل دهب (بردوود وبردوود ١٩٦٠)، ووادي الحمام (أوبرين ١٩٣٣)، وتل الشيخ (وولي ١٩٥٠, ١٩٥٣) ظهرت فيها كلها طبقات نيوليتية فخارية. وقد اكتشفت الطبقات النيوليتية الفخارية في قعر حفر السبر في حماة (انفهولت ١٩٤٠، فوغمان ١٩٥٨، ثوزين١٩٨٨) وقلعة المضيق (ديوي ١٩٧٠، أوت ١٩٧٦) في سهل الغاب. وقد أعلن عن مواد نيوليتية فخارية أو من النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB من صلنفة (كوڤان ١٩٦٨) والجانودية (كونتينون ١٩٦٩) على المرتفعات المحيطة بسهل الغاب. وقد تم الكشف عن التعاقب الحضاري من أواخر النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB وحتى النيوليتي الفخاري في قميناس (مسعودا وشعث ١٩٨٣) على سفح الجزء الشمالي الغربي لجبل الزاوية. وسهل الروج أيضاً جزء من هذه المنطقة الثانية.

المنطقة الثالثة هي سهل الهضبة الداخلية، خاصة بمحاذاة نهري قويق والفرات. وقد قامت جامعة لندن بمسح مكثف لنهر قويق (ماترز Matthers ١٩٨١)، واكتشفت حوالي ٢٠ موقعاً أنتجت مواداً متعددة منذالنيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB وحتى النيوليتي الفخاري. وذكر الكثير من مواقع النيوليتي ما قبل الفخار أ PPNA وب PPNB المبكر في منطقة الفرات الأوسط، تل مريبط (فان لون ١٩٦٨ كوڤان ١٩٧٦، ١٩٧٧, ١٩٧٨، كوڤان ١٩٩١) وتل أبو هريرة (مور ١٩٧٥، ١٩٧٩) وتل شيخ حسن (كوڤان ١٩٧٧, ١٩٧٨) وجعدة المغارة المنقبة حديثاً (كوكنيو ١٩٩٤) كلها من ضمن هذه المواقع، وقد أعطتنا مزيداً من المعلومات عن انبثاق المجتمعات الفلاحية المستقرة الأولى.

وحتى الآن، لم يرد ذكر مواقع تعود للنيوليتي ما قبل الفخار أ PPNA وب PPNB المبكر في المنطقتين الأوليتين في شمال غرب سورية، وهذه الحالة تقف على نقيض حالة المنطقة الثالثة. من ناحية أخرى، تم الكشف عن القليل من مواقع النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB الحديث وعن عدد هائل من مواقع النيوليتي الفخاري في المنطقتين الأوليتين، المتماثلتين أولياً مع نتائج تقصياتنا بالنسبة لحوض الروج.

وعليه يمكننا أن نفترض تحركاً دينامياً للسكان خلال أواخر النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB وبدايات عصر النيوليتي الفخاري. إذ يبدو أن المستوطنات انزاحت إلى الغرب والشمال حيث المطر الأوفر. ولربما كان لهذه الظاهرة صلة ببعض المعطيات الباليونولوجية التي تظهر انحساراً للمطر في أواخر الألف السابعة ق.م، وقد كان حوض الروج أحد تلك المناطق، التي انتقل الناس إليها، ونعتقد بأن مجمعات تلول

الكرخ وعري هامة جداً لدراسة مسار انبثاق المستوطنات المركزية الكبيرة الحجم. إن نمط مستوطنات مرحلة الروج ٢ يفيد بأن السلطة بدأت بالظهور قبل ذلك الوقت بقليل.

تناقص عدد المستوطنات في حوض الروج أثناء مرحلتي الروج٣ والروج٤ . أما القائمة منها فكان معظمها صغيراً ولم يكن بينها مراكز كبيرة في هاتين المرحلتين. وفخاريات هاتان الفترتان تأثرت تأثراً بالغاً بفخاريات شمال شرق سورية وشمال الرافدين، أي بالحضارة الحلفية والعبيدية. وقدبيّن الدارسون بأن المستوطنات الحلفية كانت صغيرة نسبياً بالمقارنة مع مستوطنات العصور السابقة (أمثلة واتسون ١٩٨٣، مكوريوستون ١٩٩٢، يكار ١٩٩٣). فإذا كانت هذه هي الحال، فإن الحجم الصغير لمستوطنة فترة الروج٣ يعكس النزوع العام للحضارة المرتبطة بالحضارة الحلفية. لكننا لانستطيع أن نستجلي كم تناقص عددها. ومن المؤكد، بكل الأحوال، أن مراحل الروج من ٣ - ٥ كانت مراحل أفول ضمن حوض الروج.

بدأت عملية عودة السكان في فترة الروج ٦ . ومن المعروف جيداً أن مملكة إبلا العظيمة قد ازدهرت خلال بدايات عصر البرونز الرابع في شمال شرقي سورية. وعلى الرغم من أن تل مرديخ نفسه قد أعطى مواد إبلا٢ وإبلا ٣ (ماتسوني ١٩٨٥)، إلا أننا لم نعرف الحجم الدقيق للمدينة في ذينك العصرين. وكافة تلول فترة الروج٦ في حوض الروج تقريباً أنتجت كسراً فخارية تعود لمرحلة إبلا٤ . وبما أن حوض الروج وافر الامدادات المائية والمنتجات الزراعية، فلا بد أنه كان وثيق الصلة بإبلا في ذلك الزمان، فأنماط مستوطنات فترة الروج٦ ، التي تتميز بكثافة المستوطنات المتوسطة الحجم، تشير إلى أن الحوض كان محكوماً من قبل سلطة مركزٍ ضخم من الخارج.

لقد أضحت الدراسة الإقليمية واحدة من الميادين الهامة في الدراسات الأثرية، لأنها يمكن أن تمدنا بالمعلومات الأساسية لفهم التاريخ القديم. ودراسة نمط المستوطنة هي، على وجه الخصوص، الموضوع الرئيسي للدراسة الاقليمية. ولهذا السبب، كان المسح الشامل لفهم نمط المستوطنة لكل عصر هو العملية الرئيسية في بحثنا. كان بودنا أن نفترض مجموعة واحدة من المعطيات الأثرية لشرح حالة شمال شرقي سورية ماقبل التاريخية في هذا التقرير،لكن مناقشاتنا ماتزال افتراضية. ونحن نأمل أن نتمكن من تطوير فرضيتنا عن طريق البحث والتحليل المتواصلين.